المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج

تأليف عبد الله يوسف الغنيم. الكويت: مكتبة الأمل، 1999م. 286 صفحة

مراجعة: محمد عبد الجواد علي*

مقدمة

يبدو أنّ التراث الجغرافي العربي الإسلامي بالمكتبات البريطانية ظل طويلاً حبيس الأرفف فيها غير مستثمر وغير مستغل، بعيداً عن أيد علمية موضوعية وأمينة تـــزيل غبار الزمن المتراكم عليه وتنفض عنه رسوبات التحيز وعدم الإنصاف.

وظلّ هذا التراث الجغرافي العربي الإسلامي حبيس أرفف المكتبات البريطانية حتى قيض الله يداً علمية أمينة هي يد الجغرافي المسلم العربي الخليجي الدكتور عبد الله يوسف الغنيم، فجمع مخطوطات هذا التراث وصنفها في كتابه هذا. فجاء هذا المؤلف ليفتح بوابات كانت مُوصَدة على كنوز العرب والمسلمين الجغرافيين بالمكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كمبردج وشيئ من مكتبة باريس. إن التصنيف الواعي والفريد للمخطوطات وبفهارسه للمواضع والأعلام والنساخ وأرقام المخطوطات والمصادر والمراجع والموضوعات، والذي وضعه المؤلف لفك طلاسم شفرات المخطوطات العربية بالمكتبات البريطانية وتسهيلاً للبحث والتنقيب عن هذه الركازات الثمينة المكنونة يمثل إضافة علميّة طيبة، وحصرا مفيداً. وتدور هذه المراجعة النقدية حول العناصر التالية:

أولاً : قصة وقوع هذا الكتاب في يد صاحب هذه المراجعة النقدية وعثوره عليه.

ثانياً : عرض لمحتويات الكتاب وتبويبه وفهارسه ومراجعه ومصادره.

---

* دكتوراه في الجغرافيا البشرية من جامعة ويسكونسن بالولايات المتحدة الأمريكية 1984، أستاذ مساعد في الرئاسة العامة لتعليم البنات في الرياض.

ثالثاً : أوجه تميز الكتاب وعرض لمحاسنه.

رابعاً :مراجعة نقدية وإشارة لبعض المآخذ والهنات والملاحظات والمرئيات.

خامساً: ملحوظات ختامية، وخلاصة فكرية.

أولاً: قصة وقوع الكتاب في يدي صاحب هذه المراجعة النقدية وعثوره عليه:

في معرض انشغالي بكتابة مشروع بحث بالإنجليزية تقدمتُ به للحصول على زمالة لفترة قصيرة بجامعة أكسفورد البريطانية ومعنون: **"تقصي أصول نظم المعلومات الجغرافية في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي: تحليل تتبعي ودراسة تاريخية"**

"Tracing Back the Origins of Geographical Information System in Arab--Muslim Geographical Thought: A Conceptual Analysis and Genealogical Historical Study"

كنت محظوظاً أن يقع نظري على عنوان هذا الكتاب ووجدت من النظرة الأولى للكتاب أنه سيكون مفيداً للغاية وأساساً لمن يريد أن يخوض غمار هذه التجربة لتقصي الأثر حول أصول نشأة نظم المعلومات الجغرافية في ثنايا الفكر الجغرافي العربي الإسلامي. وإذا كان الغنيم نفسه غنياً عن التعريف به في الأوساط الجغرافية العربية، إلا أن الواجب العلمي يتطلب التعريف بعمله الجديد هذا على وجه الخصوص وعلى أوسع نطاق كمهمة عاجلة حتى تعم الفائدة منه. و لم أجد حقيقة خيراً من **"مجلة إسلامية المعرفة"** لتكون هي نافذة عرض لهذا الكتاب المتميز ولعلاقتها القريبة بموضوع هذه المراجعة ولعلمي بسوق توزيعها الواسع في أرجاء وطننا العربي، خاصة في ظل ما أنعيه على حال انتشار الكتب في الوطن العربي المتباطئ وركود سوق الكتاب بصفة عامة، والجغرافي منها على وجه الخصوص، وقصور الوسائل الاتصالية بين دور النشر وبين الدول في أرجاء الوطن العربي رغم تقنيات عصر المعلومات وثورة الاتصالات والإنترنت والتجارة الإلكترونية والتسوق الإلكتروني والبريد الإلكتروني خلالها، وعبر السيرسبيس ووجود شركات عملاقة الآن على شبكات الإنترنت مهمتها فقط نشر وتوزيع الكتب وتسهيل الحصول عليها بأسرع

وقت وبكلفتها الدنيا، فما أشد حاجة الأكاديميين العرب إلى ياهو Yahoo عربية وأمازون Amazon عربية لتفعيل سوق الكتاب العربي الراكد وتحريكه[1].

وقد جاء كتاب الغنيم خطوة ضرورية وجريئة لجمع شتات هذا التراث المبعثر، وجاءت طريقة عرضه على غير ما أورده الآخرون، وعلامة مضيئة على أبواب الألفية الثالثة تمثّل في تقديرنا صيحة تجديد وتدعو إلى صحوة جغرافية عربية جديدة تستمد أصولها من تلك المخطوطات العربية الأصيلة. لقد حقل القرن الماضي بكثير من المدارس والنظريات الجغرافية ما بين حتمية جديدة، واحتمالية متطورة، ونظريات لاستخدام الأرض، والبؤرة المركزية ثم ظهور جماعات وفرق جغرافية لمدارس الظاهراتية، والاجتماعية، والبيئية ثم الراديكالية والكمية، وما صحبهما من آراء ورؤى حول مسائل الاختلافات والتشابـــهات المكانية، إلى أن وصلنا إلى من يقول إن القرن الجديد الحادي والعشرين سيكون هو قرن المكانية. وهذه كلها تعبيرات ومدارس فكرية ولدت أفكارا ومفاهيم ونظريات نمت وترعرعت واكتملت، وبعضها شاخ وانقرض وانتهى. حدث كل هذا والجغرافية العربية طوال قرن من الزمان تكاد تكون في كهف وسبات عميق، لم تحرك ساكناً، ولم تضف شيئاً يذكر، وكانت في موقف المتفرج. وقد استوعب المؤلف كل هذا ونبهنا إلى خطورة استمرارية تلك الحالة من الغياب وفقدان الوعي الجغرافي (المكاني)، بعد قرن عانى منه الوطن العربي الأمرين ما بين احتلال واستعمار، وحروب أهلية وإقليمية ودولية عالمية، وانقسامات وتخلف وتبعية.

أراد الغنيم بكتابه أن ينبهنا ويعيد الوعي بضرورة الالتفات إلى تراثنا الجغرافي العربي الإسلامي على أمل أن يكون فيه بعض من مخرج أو خلاص. فكم من معركة من معاركه السياسية والحربية خُسرت لفقدان العلم الجغرافي وحكمة إدراك معنى المكان وأهميته وعبقريته، وكم من مشروع ذهب سدى وهباء، وكم من نزاع إقليمي حدودي ذهب معه المورد والمال والبشر في وطننا العربي وعالمنا الإسلامي هباء منثوراً بسبب الضعف في

---

[1] وتفاءلنا خيراً مؤخراً بموقعين جديدين ظهرا على الشبكة العالمية الإنترنت أحدهما يسمى "الوراق" http://www.alwaraq.com/، لمجمع أبو ظبي الثقافي وفيه حشد طيب لكتب التراث، والآخر نتاج تعاون حاسوبي بين تونس والمغرب يسمى "هاهو" http://www.hahooa.com، وكلاهما ذو فائدة جمة في تسويق وتصفح الكتب الإلكترونية.

فهم الأبعاد الجغرافية، والجهل بجغرافية المكان، وتحرك الظاهرة الجغرافية عبر المكان. وجد الغنيم إذن أنه في الإشارة والتنبيه إلى جغرافية هؤلاء الجغرافيين الأوائل إحياء للفكر إعادةً للوعي المفقود.

ثانياً: عرض لمحتويات الكتاب وتبويبه وفهارسه ومراجعه ومصادره:

هذا الكتاب يذكرنا في مجمله بعصور الكتب العربية الجامعة في موضوعاتـــها، ويدل على سمات كاتبها من الاتقان والحذق والحرص وسعة المعلومات، ومتانة الصياغة وطول الباع في تخصصه والتمكن فيه. وقد احتوى الكتاب على مقدمة وتمهيد، ثم دخل المؤلف مباشرة في التقسيم الموضوعي الذي تبعه في عرض مادته العلمية التي جاءت تحت عناوين ستة دون أن يسميها لا بالفصول ولا بالأبواب، حيث يعرض مخطوطات متفرقة في الفنون الجغرافية المنوعة، ويصنفها ويفهرسها، ويتضمن تصنيفه أو تقسيمه لهذه الموضوعات ست مجموعات رئيسة، وردت تحت عنوانات: الجغرافيا الإقليمية وكتب البلدان، والجغرافيا الطبيعية، والمعجمات الجغرافية وتقويم البلدان، وكتب الرحلات، وكتب الخطط وفضائل المدن، وكتب العجائب. أعقب تلك المجموعات الست الرئيسة قائمة بالمصادر والمراجع مقسمة إلى عربية وأجنبية، ثم خصص قسما أخيراً معتبراً في نـــهاية كتابه لستة أنماط من الفهارس الجامعة للمواضع والأعلام والنساخ والكتب والمخطوطات ولأرقام المخطوطات وللموضوعات.

وقد تضمنت مقدمة الكتاب إشارة إلى اهتمام المؤلف بـــهذا الفرع من الجغرافيا التراثية منذ وقت مبكر في مسيرته العلمية، وأن مسيرة هذا الكتاب مرّت بثلاث مراحل؛ حيث كانت بدايته الأولى في صورة مقال ظهر في 35 صفحة في مجلة معهد المخطوطات العربية الصادر بالقاهرة في نوفمبر 1972. وعندما عهدت إلى المؤلف مهمة إنشاء قسم للتراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والآداب بالكويت في الثمانينيات قام بزيارة إلى لندن صور فيها معظم فهارس المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني ومكتبة كلية الدراسات الأفريقية والآسيوية إضافة إلى مقتنيات العديد من المخطوطات العربية الجغرافية والمراجع وقيامه بإعداد فهارس لمعظم المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة المتحف. أما المرحلة الثالثة فكانت في التسعينيات حيث ارتأى المؤلف إعادة النظر في كتابه

الوسيط الذي أنتجه في الثمانينيات وخاصة بعد تغير الوضع في مكتبة المتحف البريطاني وتغير اسمها إلى المكتبة البريطانية فقام المؤلف في عام 1999م بعدة زيارات للمكتبة المذكورة لمراجعة بعض ما كان موضع شكه في الزيارات السابقة، وارتأى أيضاً أن يضيف إلى هذا العمل المخطوطات الجغرافية المحفوظة في مكتبة جامعة كمبردج.

في معرض حديثه عن قسم مجموعة المخطوطات الأولى والذي جاء تحت عنوان: "الجغرافية الإقليمية وكتب البلدان" والذي ضم 18 عنواناً، تناول أولاً أهمية الجغرافيا الإقليمية البشرية باعتبارها أبرز الحقول في الجغرافيا العربية الإسلامية، وحيث ميز منها ثلاثة مناهج محددة تأثر بـــها العرب في جغرافيتهم الإقليمية وهي المنهج الهندي والمنهج الفارسي والمنهج اليوناني، حيث كان يتم تقسيم المعمور عادة إلى سبع دوائر متساوية. وظهر بعد ذلك المنهج العربي والذي نضج في القرنين الثالث والرابع الهجري وكان من رواده الاصطخري في كتابه: "**المسالك والمهالك**"، وابن حوقل في كتابه: "**صورة الأرض**"، والمقدسي في كتابه: "**أحسن التقاسيم**". وكان أساس منهج هؤلاء هو المنطقة كوحدة جغرافية2، حيث المعالجة الجغرافية الأصيلة من ناحيتي الأرض والناس، وارتباط ذلك بما أسماه جمهرة المستشرقين بالأطلس الإسلامي، والذي كانت الخرائط فيه دعامة أساسية في الوصف والشرح والتفسير والتحليل. وإن كان المؤلف لم يستطرد طويلاً في الحديث والعرض لمدى تميز هذا المنهج العربي وما إذا كان قد جاء انسلاخاً عما قبله من مناهج، أم أن له أوجه تمييزه وتفرده الخاصة به؟ وإن كان قد أشار إلى نـــهج الهمذاني المتميز كمنهج مستقل في كتابه: "**صفة جزيرة العرب**" والذي يمثل صورة مثالية لدراسة إقليم جزيرة العرب في نظره.

وهذه المجموعة هي أكبر المجموعات الست، وتفاوتت – كما في الأقسام الأخرى– أعداد المخطوطات بـــها للعنوان الواحد، وتضمنت هذه المجموعة مخطوطات لمشاهير مثل مقدمة ابن خلدون، **وصفة جزيرة العرب** للهمذاني، **والمسالك والمهالك** للبكري، والاصطخري، وكتب نراها نادرة حقاً وتتداول أشياء كثيرة ككتاب: "**الصفوة في وصف**

---

[2] والمنطقة هنا بمعنى Area ونجدها أحد الأعمدة التقليدية الأساس في الجغرافيا الغربية الحديثة والمعاصرة والتي حددها باتسون في مقاله الشهير:

Pasttison, W. (1964), "The Four Traditions of Geography, *Journal of Geography*, pp. 211-260

المملكة المصرية" لمحمد بن أبي الفتح الصوفي الشافعي (904هـ) "يصف فيها محاسن أهل المملكة، وكيفية المواكب والملبوس وما لذلك من إقامة الناموس ووصف لأرباب الوظائف والبيوتات والمطابخ والاصطبلات وعمارة القصور"، ومخطوطة: **"أخبار إقليم المسكوف"**، لقسيس أرثوذكسي من أصل سوري لم يذكر اسمه كان في روسيا عام 1758م، أورد فيها معلومات جغرافية عن روسيا وأحوال ناسها وحكوماتـــها.

المجموعة الثانية وجاءت تحت عنوان "الجغرافية الطبيعية"، وضمّت 18 عنواناً ابتداءً "**برسائل إخوان الصفاء**" وانتهاءً بكتاب: "**مرشد بحر**"، ولوحظ ورود أربعة مخطوطات بـــها عن نـــهر النيل منها "**القول المفيد في النيل السعيد**"، وما دونه السيوطي عن الزلازل وتاريخها منذ ما قبل الإسلام في كتابه: "**كشف الصلصلة في وصف الزلزلة**"، وقد أوردت مجموعة المخطوطات عدداً من النظريات والأفكار المتطورة فيما يتعلق بنشأة الأرض، ونظرية التوازن الأرضي، وتطور المجاري النهرية، والدروع الأرضية (الألواح التكوينية والصفائح القارية)، وكيفية تكون جليد الزمن الرابع، وتعرضت أيضاً لعناصر الجو، وظاهرة المد والجزر، وأسباب الرعد والبرق، ونـــهر النيل وظواهر فيضانه. وكنا نأمل أن يبين لنا المؤلف علاقة كثرة المؤلفات في هذه المجموعة تحديداً عن النيل ومصر ووجودها بالمكتبة البريطانية، وعلاقة ذلك بالكشوف الجغرافية لأعالي النيل وجهد المستكشفين الغربيين في هذا الصدد ودأبـــهم، وعلاقة ذلك بالحقبة الاستعمارية، وهل هذا نابع من حرص بريطانيا على جمع كل ما يتعلق بمصر والنيل تمهيداً لفترة استعمارية لاحقة، أم أن وجود هذه المخطوطات في المكتبات البريطانية كان لوجه العلم الخالص، ويظل السؤال ملحوقاً بآخر يتعلق بزمن وصول هذه المخطوطات، وكيفية استقرارها على تلك الأرفف في تلك البلاد الباردة؟ أهو حرص علمي بريطاني وعناية ورعاية بريطانية على جمع المخطوط؟ أم إنه خبث استشراقي وتلافيف ووسائل جمع استخباراتية للفحص والتمحيص قبل الحملات الاستعمارية للإمبراطورية البريطانية.

وجاءت المجموعة الثالثة تحت عنوان "المعجمات الجغرافية[3] وتقويم البلدان"، وتبدأ بكتاب: "**معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة البقاع**"، وحوت تلك المجموعة 12 عنواناً

---

[3] والمعجمات الجغرافية وإن كانت فنا جغرافيا تراثيا إسلاميا عربيا أصيلا، فما زالت سارية المفعول حتى وقتنا الراهن نجدها في معاجم وأعمال: حمد الجاسر، والشيخ العقيل، وعبد الرحمن بن خميس، ومحمد

من بينها كتاب: "**الأمكنة والمياه والجبال**"، وكتاب: "**المشترك وضعاً والمفترق صقعاً**"[4]، وكتاب: "**تقويم البلدان المصرية في الأعمال السلطانية**"، وكتاب: "**مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة الرئيسه والبقاع**". واعتبر الغنيم المعجمات الجغرافية أحد الفنون الرئيسية التي ساهمت في بحوث الحضارة العربية الإسلامية والتراث، وأرجع أصل بداية أهدافها إلى الوقوف أمام خطر التصحيف الذي حاق بأسماء الأمكنة الواردة في الأحاديث الشريفة طبقاً لما جاء في مقدمتي الحموي والبكري، ثم أورد أنّ الغرض البين لما ورد في كتب التواريخ والأخبار والمعاجم التي عرض لمخطوطاتـــها هو تحديد الموقع، والترتيب المعجمي لها حسب الأسماء، وتقسيم أقاليم الأرض لسبعة أقسام، وبعضها عالج إقليماً بعينه وَفْقَ مفاهيم الإصطخري وابن حوقل في تقسيم الأقاليم، وهنا نوع آخر من المعاجم الطريفة التي تحدد الأسماء التي تشترك في اللفظ وتختلف في المكان مثل البصرة (اسم لموضع في العراق وآخر في المغرب)، ويجمع ياقوت الحموي أمثال تلك المواضع في كتابه الكبير: "معجم البلدان"، وهو يمثل جهداً خارقاً وسعة أفق، وإحاطة مكانية، وفي ظل ظروف اتصالية ومواصلات صعبة.

وجاءت المجموعة الثانية تحت عنوان "كتب الرحلات" وضمنت 15 عنواناً، من بينها "**تحفة الألباب ونخبة الأعجاب**" للغرناطي، و"**عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد**" للحيدري، و"**نشوة المُدام في العودة إلى دار السلام**" للألوسي البغدادي. والرحلة

ناصر العبودي، وأسعد عبده، ومحمد محمدين، وحسن عايل، والموسوعة الجغرافية السعودية للأماكن في المملكة العربية السعودية، وأعمال علي المبارك، وسامي أمين باشا، وحسن سليم، ورمزي، وهناك ثبت كامل لهذه الأعمال وغيرها نجده في: - عبد الجواد، محمد علي، (1421/2000م)، "التعريف بماهية ونظم المعلومات الجغرافية وتقصي آثارها في ثنايا الفكر الجغرافي الإسلامي، **سلسلة رسائل جغرافية**، العدد 237، الجمعية الجغرافية الكويتية وقسم الجغرافيا بجامعة الكويت.

4 ويا لها حقاً من عبقرية تلك التي صاغت ذلك الاسم كعنوان معبر ليس فقط عن محتوى هذا المخطوط بل نجد وراءها فكرا جغرافيا متقدما وحسا مكانيا راقيا ومتقدا ودقة في الاختيار، ومع هذا العنوان لا غرابة ولا مبالغة أن نقول إن جذور مدرسة الاختلافات المكانية والتشابـــهات المكانية لهارتشورن وشيفر وغيرهم من المدارس الجغرافية الحديثة قد تولدت على أيدي هؤلاء الجغرافيين العرب العباقرة، ولعل ومن الأعمال المشابـــهة لتلك الأعمال نجد أيضا ما جاء من بعدهم ونقصد: جمال حمدان في دراسته الجادة حول فكرة النظائر الجغرافية وحيث أبدع فيها وتوسع في مقياسها فلم يقصر دراسته فيها عن الأسماء والمواضع فقط، وإنما ناظر بين وحدات جغرافية متكاملة كالجزر اليابانية والجزر البريطانية، وبين جزيرة العرب وشبه جزيرة أيبريا، وبين الهند الصينية والبلقان الأوروبية في دراسة ممتعة معنونة: "**بين أوروبا وآسيا: دراسة في النظائر الجغرافية**".

—وكما يقال— عين الجغرافي البصيرة وتضمن التسجيل الدقيق، واليوميات، ولها ألوان وأجناس كرحلات الحج والعمرة، والرحلات الرسمية، ورحلات الملاحين. وغطت مجموعة مخطوطات الرحلات بقاعا كثيرة ومهمة، منها الحجاز والقدس ومصر والشام والهند، ولا شك أن المعلومات الجغرافية وغيرها يمكن أن تكون على درجة عالية من الأهمية والدقة بحيث يمكن أن يستدل بـــها على الكثير، ولعلنا نضيف هنا أدب الرحلات على العموم قد تلاشى في عصرنا الراهن، ولعل تحقيق بعض ما ورد في مجموعة الرحلات بكتاب الغنيم تكون خطوة لإحياء هذا الجنس الجغرافي الأدبي المهم؛ إذ أن المحقق من هذه الرحلات اقتصر على ابن بطوطة، وابن جبير، وابن فضلان، وهي السائدة في أدب الرحلات.

أما المجموعة الخامسة والتي وردت تحت عنوان: "كتب الخطط وفضائل البلدان"، فاشتملت على 24 عنواناً أولها: "**فضائل مصر**" للكندي، ومن بينها أيضاً "**محاسن أصفهان**" للمافروخي. وذكر الغنيم أنه جمع مخطوطات هذين الفنيين معاً لاتصالهما. إنّ موضوع الخطط موضوع حيوي، حيث جاء دوماً في مقدمات الكتب التي تؤرخ للمدن كبغداد وغيرها، وضرب مثلا بما كتبه حسن الوزان (ليون الأفريقي) عن "مدينة فاس"، وما كتبه ابن الحكم عن "خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية"، والمقريزي كنموذج فريد "للخطط"، وحاز الحرمان المكي والمدني والحرم القدسي على اهتمامات هؤلاء الكتّاب العرب في مخطوطات عدة لأهميتها الدينية وكثرة زوارها. فمنها على سبيل المثال: "**مختصر إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق**" لشمس الدين الخوارزمي، و"**الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**" للنهروالي، كما نالت "دمشق" و"بغداد" و"القدس"[5] اهتمامات مماثلة، تمثل ذلك مثلاً في: "**فضائل بيت المقدس**" لمجهول، وتمثل في

---

[5] وما أحوج العرب الآن لمزيد من التحقيق لمثل هذه الكتب في مرحلة ضياع القدس التي نحياها الآن، فلعل يكون ما بـــهذه الكتب حول ثالث الحرمين الشريفين ما يكفي المجتمع الدولي وكدليل مادي على ما يثبت الحق العربي الشرعي المقدس للفلسطينيين والعرب والمسلمين في هذه البقعة الغالية على قلب كل مسلم، ويكون حجة المفاوض العربي سواء على طاولة المفاوضات في طابة أو كامب ديفيد أو أوسلو أو معبر أريتس أو حتى في أروقة محكمة العدل الدولية بلاهاي. فتحقيق تلك الأعمال الجغرافية التاريخية عن القدس والتي وردت في كتاب الغنيم تسهم أيما إسهام في الصراع الدائر عند كل منعطف في القدس وفي فلسطين عموما، ليس بين حجارة الانتفاضة وحسب وإنما بين عقليتين ومنهجين وتوجه تحريري وآخر استيطاني ومنهج في كتابة التاريخ والجغرافيا أحدهما عقلاني يعتمد على الوقائع والوثائق والخرائط والحق الثابت والآخر إجرامي يعتمد على عقلية المزاعم والأساطير والخرافات. ولعل ما يؤيد قيمة مثل هذه المخطوطات عن القدس والتي ورد ذكرها في كتاب الغنيم هو أحد الكتب الصادرة حديثاً بالإنجليزية

تقديرنا بعض كتب الخطط[6] وفي أجزاء مميزة منها نماذج طيبة لما يمكن أن يطلق عليه حديثاً بلغة أهل التخطيط العمراني (بشقيه الحضري والريفي) والإقليمي: الخطط الرئيسية Master plans والتي تعرض أولاً فيما إذا رغب في إعادة التخطيط إلى عرض تفصيلي للأوضاع الراهنة للمدن والقرى والأقاليم محل الدراسة والتخطيط، وقد برع المقريزي ولا شك في ذلك. وجاءت أعمال هؤلاء حقاً متكاملة تعرض بالوصف والشرح والتحليل التوزيعات المكانية لاستخدامات الأرض، والخدمات، والمواقع، وإجمالي وضعية وتناسب الكتل العمرانية على الأرضية التي تحتلها وما جاورها وما يمثل في مجمله فكراً تخطيطياً تقدمياً بأي مقياس.

اختتمت تلك المجموعات بالمجموعة السادسة والتي تضمنت (العجائب)، وتضمنت 12 مخطوطاً، أولها: **"عجائب الدنيا"** لابن وصيف شاه، وأيضاً مخطوطا لمؤلف مجهول معنون **"تحفة العجائب وطرفة الغرائب"**، يرجح بعضهم أنه لابن أثير، وإحداها حول الأهرام معنونة **"تحفة الكرام نحو الأهرام"**، والأخرى حول **"عجائب البر والبحر والحيوانات والطيور وباقي المخلوقات"**. لا شك أن معظمها يتضمن جغرافيات عديدة أهمها الحيوية، بما تحويه من نبات وحيوان وتربات وغيرها. ورغم ما أورده الغنيم من أن

ومعنون: **"القدس العثمانية: المدينة المقدسة بالحياة 1517-1917"**، قام بتحريره البروفسور روبرت هيلينبراند، وسيلفيا أولد، وتأتي أهمية الكتاب في كونه علامة تاريخية بارزة في وصفه المفصل وتغطيته الشاملة التي لم يكتب مثلها عن أي مدينة أخرى في منطقة الشرق الأوسط، فهو مشروع بحثي دولي جمع بين دفتيه أعمال فريق من 33 باحثا وتعرضت المقالات به عن تاريخ القدس السياسي والاجتماعي والديني في تلك الفترة العثمانية والحياة الفكرية والتجارية، واستخدامات الأرض بـــها ومرافقها من مكتبات وحمامات ومزارات وأزياء وأغاني وموسيقى، وأهم ما جاء فيه مقالان يقارنان بين القدس في روايات الرحالة والجغرافيين المسلمين و روايات الرحالة الغربيين، ثم دراسة معمارية مفصلة لكل سمة معمارية عثمانية في القدس، ولقد اعتمد هذا الكتاب على مخطوطات مماثلة لتلك التي عرض لها الغنيم وللمزيد انظر:

- ديب، ثائر، 2001م، "ردا على أضاليل إسرائيل وأساطيرها: حين كانت القدس العثمانية تضج بالحياة"، **الحياة**، العدد 13887، ص 21، الخميس 15 مارس 20/2001 ذو الحجة 1421هـ.

6 ويذكر الصياد (1975) مثلا "كتابة الخطط من فنون التاريخ" ولكننا نحتفل بـــها نحن الجغرافيين إذ نجد فيها مصدراً مهماً للدراسات الجغرافية الطبوغرافية والاقتصادية والاجتماعية، فالتاريخ ميدانه الزمان، والجغرافيا موضوعها المكان، والخطط في دراستها تجمع بين الناحيتين بل هي تتخذ المكان أساساً لدراسة الزمان" وللمزيد يرجع إلى:

- الصياد، محمد محمود، (1975)، "من الوجهة الجغرافية: دراسة في التراث العربي"، منشورات جامعة بيروت العربية.

هذه الكتب كان لها رواجها وشعبيتها زمن كتاباتـــها دون إبداء الأسباب، إلا أنّه ربما كان مرجع ذلك والحافز لفكر هؤلاء الكتّاب الأولين الرواد هو التدبر لذوي الألباب وانطلاقاً من دعوة أو نداء ((بأي آلاء ربكما تكذبان)). دعوة الدين الحنيف للتدبر في مخلوقاته، فكَثر مثل هذا النوع من الكتب في محاولة من كتّابـــها لعرض وتفسير تلك العجائب. وكان القزويني والدميري على رأس رواد هذا الجنس الجغزافي الأدبي، والذي نرى صوراً عديدة منه حالياً في منشورات ومجلات جغرافية كمجلة: National Geographic والمجلة الألمانية GEO، والبرامج التلفازية تحت مسمى "عجائب المخلوقات" و"عالم الحيوان" وغيره مما يتوفر الآن من أقراص حاسوبية مرنة كثيرة تعرض لهذه النماذج وتسوق لها، والتفت إليها آباؤنا الجغرافيون العرب الأولون وتغاضى عنها الجغرافيون العرب المحدثون، وأحياناً الغربيون رغم تقنياتـــهم، وهذا الاهتمام الغربي بـــهذه العجائب في العصر الراهن دلالة على العمق الفكري الذي تحلى به الجغرافيون العرب الأوائل وسبقهم في هذا الميدان.

ثالثاً: أوجه تميز الكتاب وعَرْضُ محاسنه:

1. أمانة المؤلف في ذكره لمراحل إنتاج هذا الكتاب وعبر فترة زمنية قاربت ثلث قرن بدأت بمقال، فكتيب، فكتاب ناضج، بدأ نبتة وفسيلة غرست في أوائل السبعينيات، كما أنه من الواضح أن هذا العمل جاء بإيعاز من ضمير علمي حي، وغيرة على تراث مكنوز يرى بعين فاحصة أن إحياءه ونفض الغبار عنه مهمة خير وبر عاجلة وضرورية.
2. وفاء الكاتب المنقطع النظير لأساتذته ومن بينهم المرحوم عبد العزيز كامل، واعترافه بجمائلهم، خاصة أولئك الذي أرشدوه نحو مهمة البحث عن مخطوط قيم، أو سهلوا له مهمة الاطلاع على مخطوط نادر، وذكره لفضل هؤلاء وأولئك على الملأ ومن خلال مؤلفه، مثلٌ على وفاء نادر في زمن قل فيه الوفاء وندر كثيراً في كتابات ومؤلفات اليوم.
3. تنظيم عام جيد وعرض متوازن لمجموع المخطوطات البالغ 224 مخطوطاً، وضح ذلك التنظيم في ذلك النظام الرقمي الذي وضعه، وفي التقسيم أو التصنيف الموضوعي

Thematic إلى ستة موضوعات رئيسة، ورتبت المخطوطات بداخل كل مجموعة حسب تسلسلها التاريخي، وهي إضافة تحسب للكتاب مما سهل معه المتابعة الجيدة، وإن كنا نود أن نعرف تلك المعايير التي استخدمها المؤلف في عمل هذا التصنيف الموضوعي للمخطوطات حتى نـــهتدي بـــها ونستفيد مع الآخرين.

4. تقديم موجز قدم به المؤلف لكل مجموعة من مجموعات المخطوطات الست يعرف باختصار وبنظرة سريعة مفهوم المجموعة وعناصرها المندرجة فيها. وإن كنا أيضاً نأمل في المزيد من التوسع في هذا التقديم لكل مجموعة زيادةً في الإحاطة بـــها والتعرف عليها.

5. تضمين الكتاب مجموعةً من الفهارس الجيدة الإعداد ذات المغزى والفائدة، والتي تسهل التعامل معه، وعمليات المتابعة، والحصر، والتنقل بين أجزائه، والربط بينها، وشملت فهارس عن المواضع والأعلام والنساخ والكتب والمخطوطات والموضوعات.

6. عرض الكتاب لمجموعة من الصور والرسوم والأشكال والخرائط ولبعض المنمنمات المخطوطة والمستمدة مباشرة من المخطوطات محل موضوعه، وبدا كثير منها زاهي اللون دقيق الإخراج، مما دعم المتن، ووضح جلياً حذق هؤلاء الجغرافيين العرب الأوائل، ودقة أعمالهم ليس فقط الفكرية بل أيضاً التصويرات والخرائط والرسوم والتي تخدم فكرتـــهم وتجليها. كما شكلت تلك المنمنمات والصور وسيلة جذب وتشويق للقارئ سواء المتخصص أو العادي والذي يرغب في الاستزادة أو الذي يرغب في تحقيق نص ما، فهي مشجعة على الإقدام على ذلك، وحقيقة فقد أدى الغنيم بعرضها في كتابه وسيلة دعاية وإعلام طيبة لهذه المخطوطات خاصة أن الكثير منها جاء ملوناً.

7. وصف موجز للمخطوطة بصفة عامة، وذكر لمؤلفها، وتعريف موجز به، وبتاريخ المخطوطة وتاريخ طباعتها وعدد الطبعات إن كان هناك أكثر من طبعة، والفروق والتمييز بينها، وذلك في وجازة مطلوبة ونبذات مختصرة، وأرخ كل ذلك بالتاريخ الهجري والميلادي أو كليهما.

8. تمييز واضح جلي بين ذلك المكنوز في المكتبة البريطانية سواء بمجموعة المتحف البريطاني وبالرمز (BL.M)، أو بمجموعة مكتبة الهند وبالرمز (BL.I)، والآخر المكنوز بمكتبة

جامعة كامبردج وبالرمز (CU.L)، وإن تكرر إحدهما بمكتبة باريس فيذكر ذلك. هذا ناهيك عن ذكر الرقم الأصلي (المفتاح) الذي تُوثق أو تدون به المخطوطة وتفهرس في المكتبة المعنية.

9. في المجمل نرى أن الكتاب ليس مجرد فهرس جامع للمخطوطات بالمكتبة البريطانية ومكتبة كمبردج، بل ومن خلال نظرة متفحصة وأكثر عمقاً، ومن زاوية أخرى يمكن اعتباره رحلة مخلصة عبر تاريخ الفكر الجغرافي العربي الإسلامي أوردت مصنفات مختارة، وصنفت طبقاً لمعايير سنها المؤلف لعمله، وإن كانت تقديرية فيحسب لها التزامه بها وسيره عليها.

رابعاً: مراجعة نقدية وإشارة لبعض المآخذ والهنات والملاحظات والمرئيات:

وهي في مجملها خفيفة طفيفة لا تقلل بحال من جودة الكتاب العلمية العالية وفائدته الجمة ولا تمثل في مجملها سوى هنات لا يخلو منها كتاب على هذا النمط ولا تنال بحال من قيمة هذا الكتاب، وبعض مما نورده هنا يأتي في عداد الرؤى والمقترحات:

1. اقتصار عنوان الكتاب على المخطوطات العربية، ومجيؤه تحت مسمى "المخطوطات الجغرافية العربية بالمكتبة البريطانية ومكتبة كمبردج". وبالطبع فإن المؤلف قصد بالمخطوطات الجغرافية العربية تلك التي هي مكتوبة باللغة العربية ولعلنا نرى أن إضافة كلمة "والإسلامية"[7] إلى العنوان ربما يكون أوفق ومناسباً، نظراً لأن كثيرا من هؤلاء المؤلفين الجغرافيين وإن أجادوا العربية إلا أن بعضاً منهم على الأقل جاءوا من أطراف العالم الإسلامي، ومنهجيتهم إسلامية، والكثير منهم ربما تفقه في علوم الدين واللغة أيضاً، وهويتهم غير عربية، فكان فكرهم إسلامياً وهويتهم غير عربية، وصاغوا أعمالهم بالعربية فكان الأجدر إضافة كلمة "والإسلامية" على العنوان، ولأنّ مفردات العربية (العرب وعروبة... إلخ) يظلها جميعاً المظلة الإسلامية الأوسع والأرحب.

---

[7] ورغم أن بعضا من هذه المخطوطات كتبها غير مسلمين قساوسة كانوا أو من ديانات أخرى إلا أنه كان يمكن أن يشار إلى ذلك في هامش مميز لغير الإسلامي منها، ويفصل ذلك عن ما جاء بالعنوان حتى لا يلتبس الأمر على البعض رغم أن مخطوطات هؤلاء القساوسة جاءت بالعربية، فالمسألة محلولة إذن، وبإضافة كلمة "والإسلامية" -مع الواو- تحل هذه الإشكالية على أية حال، ونظرا لأن التراث الجغرافي العربي هو إسلامي عربي أصلا وأساسا.

2. قلة المصادر والمراجع التي ضمنها الكتاب، وهناك العديد من المراجع والمصادر الحديثة في صورة مقالات تحديداً نرى أن إضافتها كان يمكن أن تحقق توازناً بين المخطوطات التي أوردها المؤلف وأهمية الموضوع "التراث الجغرافي الإسلامي"، وما كتب نحوه من مقالات ودراسات. وينطبق ذلك على المراجع الأجنبية أيضاً[8].

3. الوصف والتقديم الذي ورد حول بعض المخطوطات كان مختصراً إلى حد كبير، وورود بعض ما هو مثير ومرغب لمعرفة المزيد حولها جعل القارئ متشوقاً للمزيد لالتهام المخطوط بكامله، أو قد يشعر معه القارئ برغبته في أن يشد الرحال إلى حيث يوجد هذا المخطوط للاطلاع عليه بأكمله، وإن كان المؤلف يشكر ويثني على جهده بالتعريف بالمخطوط على أية حال، إلا أننا كنا نأمل أن يكون الوصف الملمحي المبسط فقط لبعض من هذه المخطوطات أكثر استيفاءً بدلاً من ورود هذا الوصف في نبذات مختزلة.

4. الأمنية العريضة التي طرحها الكتاب في مقدمته حول أمله أن يتسع التصنيف المفهرس ليشمل جميع المخطوطات الجغرافية العربية في العالم أجمع "ولولا ضيق الوقت وتعدد المشاغل"، هي حقاً أمنية جليلة، وكنا نأمل أن يضع لنا أستاذنا الغنيم بعض خطوط عريضة، نحو هذا الطريق، وعلى هذا الدرب ومن خبراته العريضة حتى يهتدي بـــها من يريد أن يتجشم عناء هذا الفتح الجديد.

5. كنا نأمل أن نرى تقسيماً مكانياً أو بالأحرى إقليميا مفهرساً ومجملاً في جدول مزود بإحصائية عن تلك المخطوطات التي تحدثت عن مصر مثلاً أو بغداد أو مكة أو الجزيرة العربية أو الشام وعلى غير شاكلة وطريقة فهرس المواضع المفيد الذي أورده حسب الصفحة في كتابه، وحتى يهتدي به الباحثون الراغبون في بقعة مكانية أو إقليم بعينه. كما أن جدولاً زمنياً مماثلاً ربما يضاف فيه حقل للعصر أو لزمن الدولة الذي كتبت فيه (عباسي، فاطمي، مملوكي، عثماني...إلخ) كان سيضفي على الكتاب أداة ومفردة إحصائية معلوماتية زمنية تاريخية مفيدة، وإن كان ذلك بالطبع يتطلب جهداً

---

8 وللمزيد انظر الحواشي والمراجع في: - عبد الجواد، محمد علي، (2001م)، **نظم المعلومات الجغرافية، الجغرافيا العربية، وعصر المعلومات، رؤية فكرية جديدة وتركيبة منهجية حديثة في المعلوماتية الجغرافية**، دار صفاء، عمان، الأردن. (ويطلب أيضا من مكتبة الرازي بأبو ظبي).

إضافياً (بمعنى تصنيفاً للمخطوطات حسب زمانيتها وحسب موقعها الأرضي في جداول مبسطة). ولعل ما يسهل ذلك هو استخدام الحاسوب لعمل مثل هذه التصنيفات الإحصائية المفيدة والمؤتمتة.

6. عملية الحصر والتجميع التي قام بـــها المؤلف جهد كبير في حد ذاته إلا أن ما كنا نأمله أن نجد إجابة لعدة تساؤلات هامة وملحة ومن بينها مثلاً.. كيف وصلت هذه المخطوطات —وخاصة أن الكثير منها أصول مخطوطة أو معادة خطها أو طباعتها— إلى المكتبات البريطانية..؟ أكان هذا نوعاً من الاعتناء من قبل المستشرقين والمستعربين بطباعة هذه الكتب أو إعادة طباعتها واقتنائها؟ وهل كانت النية مخلصة لوجه الله والعلم وطلابه ومريديه، وانطلاقاً من مبدأ الحوار بين الحضارات ودعماً لعمليات التلاقح الثقافي؟ أم إن من وراء هذه العناية بـــها "حاجة في نفس يعقوب"؟ كنا نأمل أن نرى جزءاً تحليلياً جريئاً ومعتبراً يغطي لنا هذه النقطة، ويشفي غليل السائل. ولماذا تم اقتناؤها؟ أكان ذلك مصادفة؟ وما ظروف وملابسات كل هذا وذاك؟ وما هو ذلك الذي اقتني عن طريق السرقة؟ فلربما حدث ذلك أو ربما اشتري بعضها أو هرب أثناء فترة الاستعمار قبلها قليلاً أو أثناءها أو حتى بعدها[9]. وهل كان اقتناؤها نوعاً من الاستطلاع والاستخبار؟ وما الدور الاستشراقي[10] في ذلك؟ وهل ساعد هذا الاقتناء

---

9 بعض الآثار والمسلات المصرية والفرعونية القديمة وتماثيل من حضارات أخرى كالبابلية والبونية وغيرها، وتحف ومجوهرات ومصكوكات من مختلف العصور الإسلامية والدولة العثمانية.

10 واقع الاستشراق بل تعريفه من حيث منظوره التاريخي كما وصفه أدوارد سعيد: أسلوب غربي للسيطرة على الشرق، وامتلاك السيادة عليه، وأن الاستشراق شكل الحضارة الشرقية في كوكبة من الأفكار الشرقية كالاضطهاد والأبـــهة الشرقية والقسوة الشرقية والحواسية الشرقية، ولم يكن أدوارد سعيد مبالغاً حين كشف الاستشراق وفضح نواياه وأعماله التي تعاملت مع الشرق وإن كان في نفس الوقت ليس من التاريخ أن نصدر حكماً جزافياً وعاماً على أكاديمية الشرق، وكما ذهب في ذلك الفيومي (2001م) ففيهم في رأيي ذوو التوجه الاستعماري وذوو التوجه التبشيري، وفيهم الموضوعيون، وإن كانت قليلة هي الشواهد التي تشهد للاستشراق العلمي بحسن النية. ويستطرد الفيومي (2001م) —وهو ما نتفق فيه معه— ونجد له تفسيراً لهذا الحرص عل اقتناء المخطوطات الجغرافية العربية الإسلامية— إن غرض الاستشراق الدراسي للشرق (بأقصاه وأوسطه وأدناه) هو رغبته الجامحة في تطويعه لسياسة الغرب وخدمة لأهداف الاستعمار، فدرسوه تاريخياً وجغرافياً ومصادر طبيعية ودينياً وحضارة وثقافة ونظماً وعرفاً. ولعل قيمة عمل الغنيم الفذة ودحضاً للاستشراق الخبيث هو حقيقة أن الاستشراق حالياً ضعيف إلى حد كبير رغم وجود تراكم لمصادر كثيرة (المخطوطات الجغرافية العربية والإسلامية) والتي لم تستغل أو يعمل على نشرها وإبرازها وحيث تراكمت المعارف العلمية الصحيحة عن الإسلام والعرب فوق بعضها دون أن

على التمهيد لحقبة استعمارية؟ أم وصلت هناك –قبله أم أثناءه أم بعده– ولتسهيل مصلحة اقتصادية تجارية، أم ليسطرة على مورد أو موقع في الشرق؟ وما علاقة كل هذا وذاك بالإمبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب عنها الشمس؟ أسئلة نراها مهمة كنا نأمل أن نجد لها بعض الإضاءات في منظومة الغنيم. ولكن يبقى الفضل الكبير لمؤلف الغنيم أيضاً فلولاه لما طرحت هذه الأسئلة، ولما أثيرت هذه التساؤلات، فالشكر موصول للمؤلف على أية حال.

7. أورد المؤلف ثلاثة منعطفات فكرية في عملية توثيق الفكر الجغرافي العربي الإسلامي بأدبه وتاريخه وجغرافيته، وهي محاولة دي خويه، وكراتشكوفسكي، والدكتور حسين مؤنس واثنين من هؤلاء فرنجة والثالث مؤرخ، مما يدعونا أولاً على التحسر على حال أهل اللغة العربية والإسلام وأهل البلاد المعنية والمناطق التي نبع منها هؤلاء الجغرافيون الأولون، وعلى الجغرافيين المحدثين المعاصرين أيضاً وتقصيرهم في حق الفكر الجغرافي العربي الإسلامي الأصيل، وهو ما دعا الغنيم إلى أن يذكر هذه الحالة في مقدمة كتابه خاصة والتقصير في عملية التحقيق لهذه المكنوزات الجغرافية، وحيث يلفت الانتباه إلى حقيقة كونـــها تمت في أغلبها عن طريق علماء من خارج الحقل الجغرافي، ومن لغويين ومؤرخين وغيرهم، ومن خارج أهل اللغة العربية وأصحاب الأرض العربية، وإن كنا نضم صوتنا إلى صوت المؤلف في هذه الصدد. ولكن ما يشفع قليلاً في هذا هي جهود الغنيم نفسه في التحقيق وعملية الحصر والتوثيق، ومؤلفاته وجهود آخرين أيضاً نجدها مبعثرة هنا وهناك مثل أعمال محمد محمدين، وعبد الرحمن حميدة، وشاكر خصباك، وأحمد سوسة، ومن غير العرب نفيس أحمد، وكذا أعمال المؤتمر الجغرافي الإسلامي الدولي الأول والذي انعقد برحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في العام 1979، ونشرت في 1404هـ/1984م في عدة مجلدات أحدها

يستفاد منها لذا فتأثير الاستشراق العلمي على الرأي العام الأوروبي كان قليلا، خاصة في السنوات الأخيرة وحيث ضعف الاستشراق العلمي الموضوعي ربما أكثر مما مضى. نأمل أن يكون كتاب الغنيم خطوة نحو لفت الانتباه إلى هذه المعارف المتراكمة التي تصحح الوضع والصورة عن العرب والمسلمين بإحياء ذلك التراث نشراً وتحقيقاً ونضيف وترجمة أيضاً إلى اللغات الغربية. وللمزيد حول الحالة الراهنة للاستشراق وتاريخه انظر:

– الفيومي، محمد إبراهيم، (2001م)، "جذور الاستشراق"، الأهرام، عدد (7 مارس 2001م)

– حمدان، عبد الحميد صالح، (2001م)، "نهاية الاستشراق"، الأهرام، عدد (7 مارس 2001م).

مجلد عن الجغرافيا العربية الإسلامية، وما يشفع أيضاً هو وجود بعض الرسائل العلمية خاصة تلك التي صدرت عن الجامعات المصرية، والعديد من المقالات المتفرقة حول قضايا الفكر الجغرافي العربي الإسلامي والتي قد تصل إلى مئات من المقالات متفرقة هنا وهناك، وأمثلة على ذلك نجدها في سليمان حزين، وإبراهيم رزقانة، ومحمد غلاب، ومحمد الصياد وعبد الفتاح وهيبة، والتي كنا نود أن نرى تدويناً لبعض من هذه الأعمال في قائمة مرجع ومصادر الغنيم لتعم الفائدة[11].

8. بيّن المؤلف حول رأيه ومنهجه في تحديد ما هو جغرافي وما هو غير جغرافي من المخطوطات القديمة وعدم ذهابه مع رأي مؤنس الذي يقول بصعوبة الفصل بين المؤرخ والجغرافي والأديب في تاريخ الفكر الجغرافي واختلاط وتشابك الخطوط الفاصلة في هذ الصدد، واقتصار منهجية اختيارات الغنيم على منهجية: "ما اعتقدت أنه يدخل ضمن العمل الجغرافي المنهجي سواء كان وصفاً إقليمياً عاماً لبقاع الأرض المختلفة أو وصفاً تفصيلياً لمنطقة بعينها.. إلخ"، ونرى أن هذا الاختيار الذاتي subjective لا يكفي، ولعل المأمول أن يكون هناك منهجية موضوعية، وذات معايير محددة نهتدي بها جميعاً في عمليات الانتقاء الجغرافي بين الركامات الهائلة من كتب التراث في التاريخ والأدب واللغة والجغرافيا والفلك وغيرها، والتي اختلط فيها الحابل بالنابل، وحيث تداخلت الفروع والأصول والحواشي والهوامش، ووجدنا مثلاً الرئيس ابن سيناء طبيباً وجغرافياً ويؤلف في كلا الفرعين. آن الأوان إذن لوضع معايير وضوابط لتحديد ما هو جغرافي وغير جغرافي من هذه المخطوطات، ثم نعمد إلى ما هو جغرافي فنصنفه درجات حسب قُربه وبُعده من علم الجغرافيا اليوم. وحقيقة فقد تركنا كتاب الغنيم حيارى أمام هذه القضية الملحة، حيث لم نرَ حسماً لهذا الهم المنهجي المؤرق والملح، وما زال المشتغلون في هذه الحقول يعملون دون تحديد الضوابط البحثية المنهجية اللازمة[12]، ونظل نستشف في تقديرنا من بعض مما أورده

---

11 انظر جميعاً في:

- عبد الجواد، محمد علي، (1421هـ/2000م)، التعريف بماهية نظم المعلومات الجغرافية وتقصي آثارها في ثنايا الفكر الجغرافي الإسلامي، **"سلسلة رسائل جغرافية"**، العدد (237)، الجمعية الجغرافية الكويتية وقسم الجغرافيا بجامعة الكويت..

12 عبد الجواد، محمد علي، (2001م)، **نظم المعلومات الجغرافية، الجغرافيا العربية**، مرجع سابق

الغنيم من مخطوطات تعرّضا لكمّ لا بأس به من أدب وتاريخ وربما لغة رغم ورود معلومات جغرافية طيبة، وفكر جغرافي واضح كذلك. والتساؤل هنا هل قصد صاحب هذه المخطوطة تلك الجغرافيا عرضاً، أم بناء على منهج وفكر جغرافي مترسخ لديه؟ وهل هو جغرافي أصلاً وأساساً؟ وما تاريخ وظروف نشأة هذا المؤلف أو ذاك ومسيرته وسيرة حياته والظروف الحقيقية التي عاشها؟ ما عَرَضته من الأدبيات في مجملها حتى الآن في هذا الصدد لم يحل لنا تلك الإشكالية. وفي تقديري المبدئي المتواضع أجد أننا نحن معشر الجغرافيين من المعاصرين —يبدو وفي غمرة الحماس للتراث— وهذا شيء طيب على أية حال— أننا ربما ألبسنا هؤلاء الموسوعيين الأولين عباءة الجغرافيا عنوة، وربما أحكمنا عمامتها أو قلنسوتها على أدمغتهم رغماً عنهم، مع أنهم ليسوا بحاجة إلى أن نبالغ في شأنهم أو نهون منهم. ولعلي أضيف أن هؤلاء الأولين كانوا جغرافيين بطبعهم وطبيعتهم، وجغرافيين بالسليقة، فلربما يحل هذا القول تلك الإشكالية إلى حد ما أو على الأقل يمثل حلاً وسطاً لإشكالية منهجية مزمنة ومعلقة. ولكن تبقى قضية البحث عن ضوابط بحثية وقيود منهجية لتحديد ما هو جغرافي منهجي، وما هو أدب، وما هو لغة، وما هو تاريخ، وما هو أدب جغرافي، وما هو لغة جغرافية، وما هو تاريخ جغرافي أو جغرافية تاريخية، يظل وضع حدود أو على الأقل خيوط فاصلة لفك الاشتباك والتداخل بين كل هذا وذلك، نقول يبقى كل ذلك قضية قائمة وإشكالية مزمنة وملحة[13].

---

13 ومثال تلك القضايا ما زالت ساخنة أيضا على الساحة الدولية وفي المدارس الجغرافية الغربية والأمريكية تحديداً، فما زالت المدرسة الأمريكية تناقش بحدة ما إذا كانت الجغرافيا علما أم أدبا أم فنا، ويتصارع منسوبو كلا المدرستين ويتنابلوا فكريا —ولا يتناطحون— في هذا الصدد وبضراوة علمية وعبر عواصف فكرية واستماتة لدفاع كل عن أفكاره وإن كان ذلك يتم في إطار الأفكار والنظريات والرؤى والمرئيات. وقد دارت مساجلة في هذا بين جون هارت John Hart أستاذ الجغرافيا بجامعة مينسوتا الأمريكية، وهو من أعضاء الحرس القديم في المدرسة الجغرافية التقليدية أنصار الجغرافيا أدبا وفنا، وبين الجدد المحدثين أنصار المدرسة الكمية والعلمية الجازفة، والتي تعتمد على المكانية والتحليل المكاني أمثال مايكل جونشيلد Michael Goodchild ورتشارد تشرتش Richard Church، وأنصار المدرسة السلوكية أمثال ريجولند كوليدج Regionald Golledge وجيري رشتون Gerry Rushton وغيرهم كثيرون. وللمزيد في هذا انظر: rt, J., (1981), "Geography as an Art: Presidental Address", AAAG. ثم ظهر رد فوري مفحم من أنصار اعتبار الجغرافيا أدبا وفنا ظهرت تعليقات في أحد الأعداد اللاحقة في الدورية ذاتها لرابطة الجغرافيين.

9. نرى بإعادة النظر في بعض المخطوطات والتي بان من عنوانـــها أنـــها لا تنتمي إلى عنوان المجموعة المندرجة تحتها كورود كتاب للعجائب في مجموعة الأقاليم والبلدان، فلربما احتاج الأمر إلى إعادة النظر في بعض هذه المؤلفات وإجراء عملية مناقلة لبعض العناوين وتسكينها في المجموعة التي تنتمي إليها.

10. الكتاب في حاجة إلى توثيق إحصائي جدولي، وجدولي متقاطع حتى يسهل متابعته، ومن خلال ما يعرف بالجداول العلاقية المتقاطعة، وهناك برامج حاسوبية في هذ الصدد تعين على إنجاز هذه المهمة من خلال مفتاح رقمي و(أو) ألفبائي محدد، خاصة أن هناك تكرر أو تفاوت في عدد مخطوطات العنوان الواحد.. بمعنى أنه إذا ما أريد مثلاً التعرف على مخطوط عن مكة المكرمة لمؤلف ما في زمن معين ومكان معين، هذا المخطوط في مكتبة ما ورقمه بـــها هو رقم معين، فيمكن استخراج ذلك بسهولة من خلال ذلك الجدول المشار إليه. ونأمل أن ترى الرقمنة (التنظيم الرقمي) للتراث الجغرافي وبواسطة الغنيم ومن موقعه ازدهاراً وتألقاً. فالتراث الإلكتروني أو أتمتة التراث أو رقمنته ليس فقط أحد سبل تدقيق وتسهيل جمعه وحصره وتصنيفه، بل أيضاً بالغة الأهمية لتحقيقه[14].

11. كنا نأمل أن يتضمن الكتاب مجموعة سابعة نراها مهمة وتكمل عمل الغنيم لمخطوطات الخرائط[15] أو للكارتوجرافيا، وتاريخ هذا الفرع لا يستقيم تتبعه ودراسته

---

[14] انظر مثلا موقع "الوراق" http://www.alwaraq.com/، الجديد على شبكة الإنترنت الذي سابقت الإشارة إليه والذي يتبع مجمع أبو ظبي الثقافي بدولة الإمارات العربية المتحدة.

[15] ويحضرني في هذا الصدد مجموعة من الأعمال أحدها حديث جدا، وهذه الأعمال هي:

- سيزكين، فؤاد (2001م)، الخرائط الأوروبية في القرن الثالث عشر إلى الثامن عشر الميلادي ليست سوى تقليد للخرائط العربية، **محاضرة ألقيت ضمن الموسم الثقافي لدارة الملك عبد العزيز بالرياض بالمملكة العربية السعودية** (قدم فيها المؤلف سبعة براهين على تقليد الخرائط الأوروبية للخرائط العربية).
- أسود، فلاح شاكر، (1404هـ/1984م)، دور العرب والمسلمين في رسم الخرائط، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الدولي الأول بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**، الرياض، المجلد (13)، ص 181-230.
- العقيلي، محمد بن أحمد، (1404هـ/1984م)، جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الدولي الأول بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**، الرياض، المجلد (3).

دون وقفة تأمل وتحية إجلال وعرفان لإضافات ما دوّنه ورسمه واختطه هؤلاء الجغرافيون العرب والمسلمون الأوائل من خرائط وألواح ومصورات. خاصة أن تاريخ علوم الخرائط شابه بعض التجني والادعاء غير المنصف من الكتاب الغربيين، وقد برع العرب في هذا الفن وفي فنون أخرى ذات صلة كالملاحة البحرية التي أجادوها، وكانت سواحل الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية هي منصات إطلاق فلكهم جوباً ببحار الدنيا السبع، فالعرب ليسوا فقط أهل صحراء وبحار ورمال، بل دفعتهم فراستهم الفلكية، وتعاملهم مع النجوم، والنظر في السماء، والتدبر والتفكر فعرفوا بأنـــهم أمة المهارة والمتمرسة بالتجارة البحرية، وما يرتبط بـــها من جغرافيات وخرائط. ولا ندري ما السبب في إغفال الكتاب لمثل هذه المجموعات المهمة ومنها أيضاً مجموعة عن علوم الفلك لصلتها بالجغرافيا. والتساؤل هنا هل تخلو المكتبات البريطانية منها؟ أم إن المؤلف آثر أن يكون ذلك في عمل آخر قادم يكمل به جميل صنعه؟

خامساً: ملحوظات ختامية وخلاصة فكرية:

فتح كتاب الغنيم مجالاً جديداً لمزيد من البحوث والدراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي الذي ما زال بكراً، ركازاً ثميناً ومكنوزاً غير مستغل أو غير مستثمر بكفاية، و لم تشف حقيقة تلك الأعمال التي صدرت حتى الآن من غليل القراء والباحثين والمتخصصين في العديد من أفرع العلوم الجغرافية خاصة، وغيرهم من المهتمين بقضايا التراث العربي والحضارة العربية الإسلامية على وجه أعم.

هذا وقد ظل موضوع تقويم التراث الجغرافي العربي الإسلامي ولفترات طويلة وما زال في وعي أو لاوعي الكثيرين فرضية عدم معلقة لم نجد لها إثباتاً أو تحقيقاً مقنعاً أو نفياً قاطعاً، سواء بصحة هذه الفرضية وصدقها ومصداقيتها أو بضلالتها، وذلك لتعدد الآراء حوله، وتأرجح هذه الآراء ما بين مؤيد ومعارض، مبالغ ومهون، مدافع ومهاجم، مدّعٍ

- شوكت، إبراهيم، (1962م)، خرائط جغرافي العرب الأول، مجلة الأستاذ، المجلد العاشر، بغداد.
- فرنيت، خوان، (1953م)، هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية؟ صحيفة معهد الدراسات العربية الإسلامية، مدريد، العدد الأول، المجلد الأول.

ومدعى عليه، متهم وبريء، ليس فقط بين أوساط الكتاب العرب المحدثين، بل وأكثر تشويشاً وتشوشاً في أوساط الكتابات الغربية، وبين جمهرة المستشرقين والمستعربين ومن على شاكلتهم. ومن واقع دراستي واتصالاتي واطلاعي، أقول إن الأحكام على هذا التراث الجغرافي العربي الإسلامي ظلت في مجملها تتأرجح يمنة ويسرة، ويصعد بـــها التقويم أحياناً إلى أعلى، ويهبط بـــها إلى أسفل أحياناً أخرى بعيداً عن الوسطية الحميدة والموضوعية المعتدلة، فما بين تـــهويل مبالغ فيه لهذا التراث الجغرافي من قبل متحيز لقيمته وجدواه ونفعه وميزاته التي لا تعد ولا تحصى، ومنهجيته الفريدة، واختراقه للآفاق، وبين تـــهوين وتقليل من شأنه ربما جاء من جاحد حاقد غير موضوعي، وغير نزيه أو غير محايد أو غير مبال، يحاول التقليل من جدواه ونفعه وأهميته، ويعتبره مجرد خاطرات وخواطر، نقول ما بين هذا الرأي وذلك ضاعت الحقيقة واختل ميزان الحكم.

وهنا تكمن أهمية كتاب الغنيم في كونه يقدم لنا مادة طيبة لمن يريد التثبت، والبحث، فهو خطوة طيبة على طريق التقويم الموضوعي للتراث الجغرافي العربي الإسلامي. ولعلّ الكتاب أن يكون حافزاً ومعيناً لمزيد من الدراسات والتحقيق لهذا التراث الجغرافي العربي، ويكون كل ذلك سبيلاً نحو صحوة جغرافية لتجديد الفكر الجغرافي العربي الإسلامي الراهن، وإنقاذ الفكر الجغرافي العربي المعاصر والجغرافية العربية من حالة الركود التي تعيشها الآن[16]، وننادي بأن دراسة التراث الجغرافي العربي وأعلامه تكون عبر مقررات

---

16 ونورد تدليلا على ذلك مجموعة الأعراض والأحداث التالية والتي حدثت مؤخراً كعينة تدل على حالة الجغرافيا الراهنة فنضم في هذه الضميمة ما يلي:

- حدث مؤخراً إغلاق لقسم الجغرافيا بجامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية، وما زالت الدعوة بالإغلاق تتصاعد من قبل القائمين على التخطيط الوظيفي للخريجين في الكثير من دول الوطن العربي خاصة بدول الخليج العربي.
- وحدث إغلاق أيضاً أو توقف للقبول مؤخراً بأقسام الجغرافيا بكليات المعلمين بالمملكة العربية السعودية، ومن قبل في أواخر الثمانينيات بجامعة الإمارات العربية المتحدة، ونما إلى الأسماع أنه سيحدث مثل ذلك بجامعة أم القرى في مكة المكرمة.
- هناك محاولات لتغيير مسمى أقسام الجغرافيا أو تـــهميشها أو تفريغ شعب منها عبر نظم علمية مختلطة منها مثلاً جامعة قطر، أو فتح مسافات تخصصية واضحة بجامعة الإمارات العربية، أو محاولة تقديم دبلومات من خلال أقسام الجغرافية في نظم المعلومات الجغرافية كما هو الحال في قسم الجغرافيا بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، (يذكر هنا أيضاً أن قسم تخطيط المدن والأقاليم بكلية تصاميم البيئة بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران بدأ في الإعداد لتقديم دبلوم في نظم المعلومات الجغرافية بدءاً من العام 1422-1423هـ/2001-2002م).

دراسية بالتعليم الجامعي العالي، وحتى في كتب الجغرافيا ومناهجها في مراحل التعليم العام، وأن يخصص أيضاً لها جزء بالدراسات العليا وبحوثها وكموضوعات لرسائل ماجستير وأطروحات للدكتوراة، ولعل بعض موضوعاتـــها يدور حول تحقيق بعض من هذه الدرر والذخائر الجغرافية للمقدسي والإصطخري وابن حوقل والهمذاني وابن خرداذابة والإدريسي والبكري وغيرهم. وأن تستخدم التقنيات الحديثة في طرائق تدريس مثل هذه المقررات بحيث تجذب الطالب وتربط بين الماضي التليد والتقني الحاسوبي الحديث. ونرشح كتاب الغنيم وأمثاله ليكون أحد أدوات هذه المقررات والدراسات والبحوث، نأمل أن تحذو العلوم الجغرافية وأقسامها الأكاديمية بالجامعات العربية حذو فروع المعرفة الأخرى الطبيعية والسلوكية والاجتماعية فيما تقوم بـــها أقسامها الأكاديمية من إيلاء الأهمية الواجبة لموضوعات التراث، ولا يخفى على أحد تخصصات علم النفس، والطب، وعلم الاجتماع، والعمارة، ناهيك عن اهتمامات التاريخ والأدب واللغات والفقه والسيرة واهتمامها بـــهذا التراث.

وقد ظلت كتب التراث العربي الإسلامي طويلاً مهملة، وكما أسلفنا فلم تتبلور بعد المنهجية والضوابط التي تحكم عمليات التحقيق الجغرافي السليم، والجهود في ذلك مبعثرة

- ومن هذه الأعراض فقد ذكر أن عدد الطلاب الذي سجلوا أو اختاروا المواد الجغرافية في مقررات المرحلة الثانوية بأحد المناطق التعليمية بمدينة الإسكندرية بجمهورية مصر العربية (غرب) قليل للغاية، وهذه المعلومة منقولة من حديث مع أستاذنا الجليل الأستاذ الدكتور/ أحمد أحمد مصطفى أستاذ الجيمور فولجي والخرائط بقسم الجغرافيا بجامعة الإسكندرية، ومن واقع معرفته بأوضاع الجغرافيا فيما قبل التعليم الجامعي هناك .
- ومن هذه الأعراض أيضا ما يشير إليه تفصيلا الجغرافي العربي صاحب المعالي الأستاذ الدكتور/خالد بن محمد العنقري، وزير التعليم العالي بالمملكة العربية السعودية في معرض تشخيصه لحال النشاط البحثي والتأليفي بأقسام الجغرافيا بالمملكة العربية السعودية، حيث يذكر معاليه "أن الإنتاج العلمي من بحوث ودراسات ومؤلفات وترجمة لا تتلاءم مع ما كان مأمولا من مثل هذا العدد من أعضاء التدريس، ومع ما تتيحه الجامعات السعودية من إمكانات تيسر إجراء البحوث العلمية"، ويضيف معاليه "بضعف الناتج العام لمثل هذا العدد وفي ظل هذه الإمكانات وأن معظم البحوث التي تجري يكون هدفها استكمال المطلوب للترقية، وبعد ذلك تخبو جذوة النشاط البحثي بمجرد الحصول على الترقية المطلوبة"، وللمزيد انظر:
  - العنقري، خالد بن محمد، (1994م)، "كلمة معالي وزير التعليم العالي"، بحوث مختارة من الندوة الخامسة لأقسام الجغرافيا بجامعات المملكة العربية السعودية، والتي عقدت برحاب جامعة الملك سعود بالرياض خلال الفترة من 10-15 ذو القعدة 1414 هـ، الموافق 16-28 أبريل 1994، ص 13-22.

ودون منهجية واضحة أو مدرسة فكرية ذات توجه علمي رصين. ومن بين كل ذلك التراث الجغرافي، حازت كتب الرحلات نصيب الأسد من التحقيق، ونعلم أن هذا الفن الجغرافي يأتي على هامش ذخائر التراث الجغرافي العربي الإسلامي، وتُرِكَ الباقي الثمين. وتأتي مناداتنا بمزيد من جهود التحقيق والبحوث في هذا الفرع الجغرافي التراثي المهم بعد أن اطلعنا على كتاب الغنيم فهو يهدي إلى ذلك، ويمهد له الطريق، وكذا بعض من أعماله الأخرى. وتنبع دعوتنا تلك أيضاً مما أورده الغنيم نفسه في مقدمة كتابه من حقيقة "أن الكثير من كتب الجغرافيا العربية التي نشرت حتى الآن سواء في أوروبا أو في البلاد العربية قد قام بتحقيقها علماء من خارج الحقل الجغرافي من لغويين ومؤرخين وغيرهم"، وأيضاً من اعتقادنا الجازم بالحاجة إلى تأصيل لعلم الجغرافيا تأصيلاً عربياً إسلامياً نابعاً من تراثنا العلمي الفكري كما ذهب في ذلك الغنيم أيضاً.

ليس من الصواب أن نـــهمل السلف الجغرافي العربي المنسلم الصالح[17]، فلعلنا نعيد للجغرافيا العربية المعاصرة والمترنحة، والتي قاربت كما يذكر البعض على مرحلة احتضار أو اختناق، نعيد إليها ذلك الوميض الفكري النير، وبخطوطه المنهجية المتزنة المميزة، ونعيد — أيضاً— تلك النغمة الصحيحة النابعة من ثوابتنا وبيئاتنا وتراثنا، والتي تتواءم مع ظروفنا، وتحت شعار "نحو جغرافية عربية إسلامية جديدة ومتجددة"، تكون منطلقة من مفاهيم أسلمة العلوم، ومن منطلق النظر بعين إلى التراث، وبعين أخرى إلى الواقع وإلى تجارب

---

17 وحتى هؤلاء وعلى الجانب التقني كان لهم إضافات فذة أيضا ونورد تلك الضميمة للتدليل على ذلك، وهي حقيقة تتعلق بأصل وتاريخ الحاسوب ذاته، وهو اكتشاف ربما سيدهش الكثيرين. وهو ما كشفت عنه أبحاث أجراها علماء مصريون في مجال علوم اللغة، أثبتوا فيها أن الكمبيوتر في الأصل ابتكار عربي إسلامي، واكتشفوا كذلك أن العلماء العرب والمسلمين اخترعوا جهاز كمبيوتر واستخدموه في إجراء أصعب القياسات والعمليات الحسابية المتعلقة بأسرار الفضاء والكواكب بأساليب علمية دقيقة وواقعية لا مكان فيها للأوهام والخرافات.

وقد تحقق ذلك الاكتشاف على يد الباحثة المصرية الدكتورة/ فاطمة محجوب– أستاذة علم اللغة بجامعة عين شمس، بجمهورية مصر العربية– والتي أوضحت أن جمشيد بن مسعود الملقب بالكشاني كتب في سمرقند عام 1429م عددا من الكتب العلمية منها كتاب باللغة العربية عنوانه: **نزهة الحدائق**، يصف فيه "جهاز الاتصالات" ملحقة به آلة تسمى: "جهاز طبق المناطق"، ومشار إليه بأنه جهاز يستخدم في حساب خسوف القمر. وأشارت الباحثة إلى أن الكمبيوتر في أوروبا لم يكن يحمل هو الآخر في بدايته اسم الكمبيوتر بل أطلق عليه ذلك الاسم بعد تطويره، وللمزيد يرجع إلى:

– الحياة (صحيفة)، (1997م)، "الكمبيوتر بيتكلم عربي"، عدد 1997/12/18م.

الآخرين، وعلى أمل أن تجد علومنا موطأ قدم ثابت راسخ بين الحضارات، وبالمثل تجد الجغرافيا العربية، والمدارس الفكرية الجغرافية الأخرى المتنوعة مكانتها، ويعاد لها رونقها، وتجعلنا دوماً في موقف الند والمنافس الشريف للآخرين.

لعلّ القيمة المضافة الأخرى لكتاب الغنيم أنه يمثل صحوة التجديد لجغرافية عربية جديدة، ومع بقية ثلاثيته التي صدرت مؤخراً وهي علاوة على هذا الكتاب وكتابين آخرين للمؤلف الغنيم "**كتاب اللؤلؤ**" (1989م) وكتاب "**مصادر البكري ومنهجه الجغرافي**" (1996م)، ثمّة أعمال لعلماء ومفكرين آخرين بدأت تتوارد وتـــهتم بالتراث العلمي الإسلامي ومن بينها التراث الجغرافي العربي الإسلامي، وحيث جاءت كلها لتمثل أبلغ رد على بعض صرخات التعصب العلمي، والصيحات الفكرية التي ظهرت مؤخراً نراها تنضح عل السطح بين الحين والآخر تنفث كل ما هو ملوث ومعكر للصفو العلمي المنهجي المستقيم. ونستدل في ذلك على ما ورد مؤخراً بندوة حول الألفية الجديدة[18] من تـــهكم واستخفاف وسخرية بمناهج هؤلاء الجغرافيين الأول حيث كان التساؤل في أروقتها من أحد المشاركين بـــها: "والآن ما آمال الجغرافي العربي وطموحاته عندما تدنو خطواته إلى بوابة الألفية الجديدة؟ هل يظل يقلد في أبحاثه مناهج ابن بطوطة والمسعودي والإدريسي في وصف البلدان وغرائب الزمان؟"، ويجيب بـــ"لا" النافية، ثم يردف قائلاً: "الأمر يتعلق بالواقعية في التفكير البحثي ويتعلق بكيفية التفاعل مع القضايا البحثية المعاصرة طبيعية أكانت أم بشرية" والابتعاد عن طراز البسطاء وعندها فقط يمكن أن تكون لنا آمال قد تفوق آمال غير البسطاء". مثل هذه الأقوال غير المسئولة والأحكام الجزافية غير الموضوعية من المتمسحين بالعلم الجغرافي والجغرافيا منهم براء.

لقد تناسى هؤلاء أن "ابن بطوطة" شهد له العربي المسلم والمستعرب والمستشرق[19] وهو بمثابة الأب الحقيقي للجغرافيا الميدانية، ويكفينا ما حقق من أعماله، وما أجري حوله

---

[18] وللمزيد انظر: تقرير حول: الألفية الجديدة: التحديات والآمال، (2001م)، **مجلة العلوم الاجتماعية**، العدد 4، السنة 28، ص 217-219.

[19] وفي هذا وعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر أحد الكتاب الغربيين المنصفين وهو بارتـــهولد Barthold في المقدمة التي كتبها للطبعة المنقولة طبق الأصل بواسطة مينورسكي Minorsky [لكتاب: حدود العالم، لنجراد (1930م)، ص 7 (وهو مؤلف بالفارسية مجهول المؤلف يذكر البعض أنه ربما منقول من

من دراسات وبحوث، حول ما أفادنا به من توصيف دقيق وتفسير لما قابله من ظواهر جغرافية وغيرها وتسجيله الحي الدقيق لمنعطفات رحلاته التي طوف فيها الأرجاء وقطع فيها آلاف الأميال. ونسي هؤلاء أيضاً أن "المسعودي" هو ذلك الجغرافي العربي الفذ 346 هـ / 956م، صاحب المزج الفكري الفريد بين المنهج النظري والتطبيقي[20]، وهؤلاء ومع غيرهم من الرحالة شهد لهم الجميع بالنقل الدقيق والتسجيل الحي لعادات الشعوب التي زاروها في بقاع الشرق والغرب وما زالت هذه التسجيلات والمؤلفات التاريخية الجغرافية تشكل كلها مصادر أساسية في تاريخ تلك الأقوام، وحيث ترك هؤلاء وصفاً دقيقاً لجميع البلدان من إسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة، وللمناطق المزروعة والصحاري، وفي عصر لم تكن هناك آلات تصوير، أو بث صوتي أو ضوئي، أو وسائط لتقنيات أحادية أو متعددة.

ولم يهتم هؤلاء الجغرافيون الأولون بالجغرافيا الطبيعية وظروف المناخ فحسب بل والحياة الاجتماعية والصناعية والزراعية واللغة والتعاليم الدينية والعادات والتقاليد. ونتساءل أين الجغرافي العربي المعاصر بين هؤلاء؟ وما هي قامته مقارنة بـــهؤلاء العمالقة الأفذاذ؟ أما "الإدريسي" أبو علم الخرائط فيكفيه ما دعا مدرسة الجغرافيا School of Geography[21] بجامعة كلارك الأمريكية Clark University أحد معاقل الجغرافيا بالشمال الأمريكي أن تطلق اسمه على أحد برمجياتـــها الشهيرة والمتداولة تسويقاً عالمياً في مجال نظم المعلومات الجغرافية، أحدث الفروع الجغرافية وحيث أطلقت عليه مسمى IDRISI وأشارت في أدلة البرنامج أن هذا اعتراف منها بجميل وفضل هذا الجغرافي والكارتوجرافي العربي المسلم الفذ.

العربية أصلا ويرجعه البعض الآخر إلى الخوارزمي كمؤلف له)]، حيث يذكر هذا الكاتب الغربي المنصف في تلك المقدمة بأن: "عدم دراسة كتب الجغرافيا عند المسلمين يمثل نقصاً خطيراً".

20 في هذا انظر: وهيبة، عبد الفتاح، (1965م)، **جغرافية المسعودي بين النظرية والتطبيق**، منشأة المعارف، الإسكندرية.

21 وتعبير School هنا بالمصطلح الأمريكي هو ليس بكلية وليس بقسم أكاديمي، وإنما مرحلة وسطية بينهما، بمعنى أن كلمة School هنا هي أكبر من قسم أكاديمي للجغرافيا بأحد الجامعات، وكما هو معروف فالجغرافيا بجامعة كلارك مدرسة فكرية مميزة ويصدر قسمها أيضا الدورية الشهيرة: "**الجغرافيا الاقتصادية** –*Economic Geography*".

إن أزمة الجغرافيا العربية المعاصرة هي بعدها عن الأدبيات سواء القريبة أم البعيدة، المحلية أم الإقليمية، أم العالمية وتباعدها وانعزالها عن الأدبيات الحديثة المعاصرة في الفكر الجغرافي الغربي وتجارب الآخرين، وبالمثل عزلتها أيضاً وتجاهلها المفرط لأدبيات الجغرافيين الرواد الأوائل من الجغرافيين العرب والمسلمين، مما أضاع ملامح الجغرافية العربية المعاصرة، وخيمت على فكرها أزمة بوار وركود.

لقد جاء كتاب الغنيم وجهوده البحثية الأخرى في التراث الجغرافي، وأمثال تلك الأعمال في أدبيات عصر زهاء الجغرافي العربي الإسلامي، في وقته ليمثل رداً عملياً على الداعين إلى: "إنقاذ الجغرافيا من حصار الأدبيات". فالأدبيات وإحياؤها وتحليلها ونقدها لأي فرع من فروع العلم هي الأساس الذي يبنى عليه، وهي أحد الأركان المنهجية والواجبات البحثية الملحة التي تفتقدها جغرافيتنا العربية المعاصرة، والتي تعاني من عوز شديد فيها.

لقد أعاد كتاب الغنيم حول: "المخطوطات الجغرافية العربية"، وبعقل موزون وفكر عقلاني رصين ومفتوح شيئاً من التوازن المفقود. فهو يلفت الانتباه لأدبيات ما أحوجنا إليها في دراستنا المعاصرة من ناحية، واستكمالاً أيضاً لكتابه تاريخ العلم الجغرافي بمصداقية، فلا يعقل أن يظل الغربيون في تماد سافر يكتبون تاريخ الفكر الجغرافي بادئين بالمنهج اليوناني وعلى رأسه بطليموس، ويقفزون إلى جغرافية العصور الوسطى وعصر النهضة والكشوف الجغرافية وريتر، وهمبولدت، وليل، وسمسون، ولا بلاش، وشيفر وهارتشورن دون أن يوردوا —أو حتى يمروا مرور الكرام ويعرجوا على— الفضل الجغرافي العربي الإسلامي وفكره الواعي الأصيل الذي وبأي مقياس مثل منعطفاً خطيراً في مسيرة هذا الفكر، ولكونه يستمد نفحاته من الإسلام الحنيف.

وحري بنا إذن نحن معشر الجغرافيين أن نراعي في مسلكنا أن يكون هناك توازن بين الأصالة والمعاصرة، وأن يكون سعينا نحو الحديث والتقني، والمعاصر لا هرولة نحوه بقدر ما يكون بتئودة وأناة وسعياً حثيثاً دؤوباً لا نغفل فيه درر ولآلئ الجغرافيين العرب والمسلمين القدامى والذين أوسعونا علماً بمؤلفاتـــهم الموسوعية الرائعة. كتاب الغنيم وبحوثه أراه علامة مضيئة على هذا الدرب الوسطي، والذي يقول لنا ببساطة يجب ألا نرفض التراث

العلمي السابق رفضاً مطلقاً بل هناك ضرورة للتواصل معه، والإضافة إليه، والبناء عليه، وتحديثه إن وجب الأمر كونه مجهوداً إنسانياً يجب أن يحترم ويجل.

لقد استطاع الغنيم أن يرفع بعض الستائر البريطانية التي ظلّت طويلاً مسدلة على ذخائر الجغرافيين العرب والمسلمين الأوائل بالمكتبات البريطانية، واستطاع أن ينقل لنا وميض أفكارهم بعد أن استقرأها، وبعد أن استنبط ذخائر علمهم الجغرافي، ومن خلال ما خطوه بأقلامهم جمعاً وإعداداً وتأليفاً.

وصدق الإمام محمد عبده حين قال: "إن قراءة التاريخ (وبالطبع الأدبيات وتاريخ العلوم) واجب من الواجبات الدينية وركن من أركان الوطنية فلا بد من تحصيله". لقد كان هذا العمل استجابة لنداء الإمام محمد عبده بعد قرن من الزمان. ولا شك أن حافزه في هذه الاستجابة كان مستمداً من الدين والتراث.